الفصل الثامن عشر

ماذا عليك أن تعلم؟

ماذا عليك أن تعلم؟

﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] هذا أمر الله تعالى لنبيه وقدوتنا ﷺ، أمره أن يعلم أولًا، وهذا العلم هو أعظم ما يجب على الإنسان أن يعلمه ابتداءً في هذا الوجود، ولا بد من ثلاث خطوات جوهرية هي بمنزلة الأركان الضرورية لتحقيقه: الأولى، الاعتقاد الجازم بوجود الله تعالى اعتقادًا صادقًا نقيًّا من أي شائبة، الثانية، الاعتقاد الجازم بأنه تعالى واحد في ربوبيته للوجود كله وألوهيته التي لا شريك له فيها، والثالثة، أنه ليس كمثله شيء في صفاته، فلا يشابهه أحد من خلقه مطلقًا، يجب أن يتحقق هذا العلم بيقين مطلق قبل الانتقال إلى أي خطوة قولية أو عملية، وهذا كله من أعمال القلوب اليسيرة جدًّا التي لا تكلفنا أي جهد بدني، ثم بعد ذلك عش طبيعيًّا أيها العبد المؤمن، وفق فطرتك التي ستجذبك نحو هذا الرب العظيم، فتطمئن إليه وإلى كتبه ورسله ووحيه، فتنصت له، وبعد رسوخ هذا الحق في قلبك يتحقق لك وعد الله المؤكد بتهيئة الطريق نحو الهداية المنشودة، قال تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الحج: ٥٤] ومن مقتضيات هذا العلم أن تكون علاقتك بالله علاقة المخلوق بالخالق، والعبد بسيده، والفقير بالغني، والضعيف بالقوي، والفاني بالباقي، هكذا خلقت عبدًا وأنت عبد، وستبقى عبدًا، فكن كذلك طوعًا لتنال الجزاء الأوفى، لا كرهًا يوصلك للبلاء، إن وجودك يؤهلك لكي تكون في وضع متوازن لا يكلفك شططًا، لا تلتفت يمينًا ولا شمالًا، واسلك صراط الله المستقيم، فأنت المعني بهذا الأمر وعليك أن تكون عبدًا لله كما كان الملائكة المقربون والأنبياء المرسلون من قبلك عبيدًا للرب العظيم الجبار.

ومن أعظم خصائص هذا الإيمان الراسخ أنه لا يأتي بالقوة ولا الإكراه، ولهذا فقد جاء الخطاب القرآني صريحًا جدًّا بأنه: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] فليس لأحد أن يفرض عليك قيودًا في التفكير والتأمل، ها هو الوجود أمامك، تصرف كيفما تشاء، وحلق في سماء الحرية الفكرية ذهابًا وإيابًا، جرب كل شيء، فالأمر من الوضوح والرسوخ أن لا أثر للمخلوق عليه، فمردك إلى عبودية هذا الخالق العظيم، ومن كان

لديه غير ذلك فليقبل هذا التحدي الصريح، وليدفع عن نفسه الموت الذي كتبه الخالق عليه بأمره ومشيئته وقدرته: ﴿فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨] وكلما أدركنا عجزنا وقصرنا عن معرفة ما حولنا وشلل قدرتنا على تغيير الأحداث، ازداد قربنا وحاجتنا، بل وفقرنا إلى القادر العظيم مالك الملك، وبهذا يخرج هذا الرجاء الصادق من أعماق القلوب المؤمنة يوميًّا استغاثة به، ونحن قيام بين يديه متضرعون له مرددون: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

*****

الخضوع للخالق عزةٌ للمخلوق

بعد أن تعلم أنه لا إله إلا الله، تجاوز هذه المرحلة إلى ما بعدها، وواجه هذا الوجود معتزًّا بإيمانك الفطري الراسخ، غير مكترث بما قد يطرأ من تساؤلات عابرة علاجها أن تتذكر قصص الأنبياء في القرآن الكريم، وماذا قالوا لربهم وهم من هم! في مقامهم الإيماني والاصطفائي، ثم عش حياتك الدنيوية متوازنًا بلا قلق ولا إزعاج، واعلم أن الإيمان درجات، ولكنه إيمان بحد ذاته لا يُوجد مع نقيضه أبدًا، يتفاوت بين المؤمنين تفاوتًا لا يخرج أدناهم إلى منطقة الخطر، فالرسل هم الأعلون إيمانًا، وأدنانا إيمانًا هو من لديه بقية باقية من فطرة سليمة، والخير في كل ذرة إيمان قل أو كثر، ويستحيل علينا وعليك أن نصل إلى درجة اليقين الكامل في إيماننا الحسي بالغيبيات، كلا! حتى الأنبياء وهم أكثر منا إيمانًا وتسليمًا، احتاجوا لمزيد من الطمأنينة الحسية الخاصة من الله، والوحي ينزل عليهم، والملائكة تحفّهم، ومع هذا فقد طلبوا من الله أن يذكروا، وتثبت قلوبهم، ويتولاهم الوحي عناية ورعاية وحماية، وهم مثلنا يبشرون بوعد الله، ويخوّفون من وعيده.

إنك من ذرية آدم، ولست من الأنبياء ولا الملائكة، فلا تحلم بدرجة إيمانهم، واقتنع بإيمان بشري في أعلى درجاته الممكنة، وكله لك خير من الله، فإن من أكبر المنغصات على الإيمان أن يتخيل الإنسان أنه إذا لم يكن يحمل إيمان الملائكة والأنبياء،

فإنه في خطر جسيم، وأنه ليس بمؤمن إذا لم تصل درجة إيمانه إلى تمام المئة درجة! كلا، ثم كلا، إن الناجحين في الامتحانات الدنيوية المبنية على المشاحّة هم كل من يحققون ستين في المئة من الدرجات فما فوق، ويتنافس المجتهدون للاقتراب من المئة، ولكن نادرًا جدًّا أن يصلوا إليها، ولهذا استقر العرف على وصف من يتجاوز درجة التسعين بالمستوى الممتاز، أي إنه وصل إلى القمة، وهو لم يصل المئة بعد، هكذا الحياة تسديد ومقاربة، وهكذا يجب أن نسعى إلى النجاح الإيماني أولًا، ثم بعد ذلك نسعى إلى تسديده بقدر الاستطاعة بالأعمال، لكن تذكر دائمًا أنك مؤمن بفضل الله، ولأنك في وضع لا يرضي الشيطان، فهو ينغص عليك بالوسوسة والشكوك التي لا تضر بإذن الله، فاستعذ بالله السمع العليم من الشيطان الرجيم.

ثم اعلم أننا في دار الابتلاء التي تسبق دار الجزاء، ومن رحمة الله أن منحك اصطفاء خاصًّا منه ﷻ باختبار إيمانك بالغيب، لقد بلغتك الرسالة من بشر مثلك، دون أن ترى رسولًا مرسلًا، أو أن تسمع من ملك مقرب، وتذكر أن الله قد خص المؤمنين بهذا الغيب بأن وعدهم بمغفرة وأجر كريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [الملك: ١٢] وهذا الفضل من الله والجزاء الأوفى إنما هو لأصحاب العقول المتوازنين مع الوجود، الذين جعلوا إيمانهم بالمعقول، وتصديقهم للوحي وعلم الغيب، كإيمانهم بالمحسوس بقدر الاستطاعة؛ لأن الغيبيات تدرك، وتصدق بالعقول والخبر الصادق، أما المحسوسات الشاهدة فتدرك بالحواس والعقول معًا، ومع هذا فإن يقين الإيمان بالغيبيات لا يتساوى مع يقين إدراك المحسوسات، وكلما اقترب اليقينان اقترب الإنسان من كمال الإيمان، ولذلك قيل في تعريف الإحسان: «**أن تعبد الله كأنك تراه**»، ولو رأيته لزالت حكمة الابتلاء بخشيته بالغيب، وأنت لن تراه في الدنيا على الإطلاق؛ لأن رؤيته استحالت على موسى عليه السلام قبلك، وعليه فالمؤمنون يتنافسون على الاقتراب من هذه الدرجة العليا وقليل منهم يصلها، ولكن رحمة الله أوسع وأرجى وأقرب إنه الرحمن الرحيم ﷻ، ورحمته قريب من المحسنين، والخضوع له عزة وسعادة.

*****

الحس والعقل والوحي

الفطرة السليمة تجمع بين المحسوسات والمعقولات تحت مظلة الوحي بتوازان لا يرد معه أي تعارض، وتتسع لسماع الآراء والأفكار القديمة والحديثة، وتنصت لحوارك الخاص مع ذاتك، لتثبت في نهاية المطاف أن ما توصلت إليه فطريًّا من التوازن بين المحسوس والمعقول، جنبًا إلى جنب مع التصديق بالخبر الرباني (الوحي) إنما هو الإيمان المطلوب الذي تتعطش لتحقيقه، مع اختلاف الناس في درجاته لاختلاف الأفهام والاستطاعة بينهم، ونحن هنا لا نقدم شيئًا جديدًا عجز عنه الأوائل، لكن للتذكير بما يجب التذكير به، كي تطمئن إلى الإيمان الذي تحمله، ولا تنتظر من أحد أن يخرق لك حاجز الغيب، ويقدم لك فتحًا غيبيًّا جديدًا في هذا المجال فوق ما هو ماثل بين يديك الآن من التذكير العام وتجميع الحقائق التي وصل إليها، وتوقف عندها أسلافنا من قبل، وبهذا تكون قد دخلت إلى نافذة الإيمان الصحيح بتعقل وإدراك، دون أن تبقى مقلدًا جامدًا على آثار من تلقوا الأمر الموروث باللامبالاة والكسل، فاكتفوا بالتقليد الأعمى قائلين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] أنت مؤهل بنور الله أن تكون طبيبًا معالجًا لتنقل هذه الفئة من مقر كسلها وتقليدها إلى مركز الطوارئ المناسب لعلاجها بالبلسم الروحي المطَمئن المستقى من الوحي المنزل من عند الرحمن الرحيم لتقول لهم بكل عزة وفخر: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [الزخرف: ٢٤].

وهذا الهدى الرباني المشار إليه في هذه الآية هو غايتنا ومبتغانا في هذه الحياة، فما خُلقنا أصلًا في هذا الوجود إلا لنعبد الله، ونطيعه، ونحبه، وهو ما حاولنا معًا التذاكر حوله في هذه الرحلة الإيمانية؛ حرصًا على تطبيع الطبيعي من أمرك الفطري، وتأكيدًا على أنه مع وجوده، فإنه ليس ثمة قلق ولا وحشة لمجرد هذا (الاشتباك) الفكري العابر بينك وبين هذه التساؤلات المستعصية على كل شيء إلا الله الذي هو وحده فقط يعلم كل شيء؛ لأنه هو الخالق وحده: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] أما أنت

أيها المؤمن، فيكفي أنك تكافح من أجل سلامة هذا الإيمان، وأنك مسيطر على الموقف سيطرة ضرورية لتماسك إيمانك الذي تغذيه بالتذكر والأذكار وبالمجاهدة والمدافعة والعبادات حتى تلقى الخالق ﷻ متمسكًا بهديه.

ولأهمية هذا الأمر في الوجود كله أصبح التفصيل واجبًا، والتكرار مقصودًا، والتذكير بالله تعالى متواصلًا؛ كي يطمئن القلب على أن مفتاح فهم كل الأسرار في الوجود، هو هذا الإيمان الفطري الذي تحمله، فلا تقلق أبدًا، وهنا موضع الامتحان والاصطفاء من الخالق! أتظن أنك لم تُبتلَ بإيمانك هذا الذي تجاهد لبقائه؟ أتظن أن محك التمايز الذي أوجده الخالق بين الخلق معطل؟ أتظن أنه ليس هناك متابعة ولا رعاية متواصلة في كل لحظة من وجودك حيًّا وميتًا؟ بلى، والله، لقد خلق الله كل شيء بقدر، خلقنا وخلق معنا الموت والحياة ليبلونا أينا أحسن عملًا، وهو العزيز الغفور، وكل ساكن ومتحرك في هذا الوجود مرصود في كتاب مبين، وأن مردنا إلى الله.

جرت العادة أن يشعر الإنسان بالإحباط عند عجزه عن تحقيق هدف دنيوي معين، أما مع وجود الإيمان بالله وتعظيمنا له فإننا نتذوق لذة عجزنا في محاولاتنا البائسة عبر التاريخ لفك لغز هذا الكون والوجود والموت وما بعد الموت، وجلب كل ما نريد، ونشتهي، ودفع ما لا نريد، ولأننا لم نتمكن من ذلك، حتى لو جمعنا آراء الأولين والآخرين على مر التاريخ، وغربلناها بحثًا عن جواب مقنع عن أسرار الوجود والغيب، فلن نجد على الرغم من كل هذه المحاولات شيئًا يجعلنا نثق بتقديمه تفسيرًا لوجودنا سوى هذا السيل المتدفق من تلكم الاحتمالات والفرضيات التي تتقاذفها نظرياتهم النقدية والاعتراضية، وعبثًا يتشبث ببعضها، بعض بني الإنسان بدافع العناد والمكابرة والصدود عن الوحي: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤] وأجمل ما في هذه النتيجة أننا مع الوقت ندرك عظمة من نعبده وضعفنا إليه، فنزداد فخرًا وطمأنينة أن هذا ربنا الذي نخافه، ونرجوه ﷻ، فنزداد إيمانًا مع إيماننا.

*****

الإيمان الراسخ والوسواس العابر

اعلم أن هذا العناد البشري والمكابرة بالإعراض والصدود عن الحق بعدما تبين مع وضوح لذة الإيمان وضرورته للحياة وما بعدها عند بعض الناس، ليس له تفسير منطقي سوى تلك المحاولات البائسة التي يقوم بها عدو آدم وحواء وذريتهما من بعدهما، إبليس اللعين قائد سرايا الضلال المبين، كما أخبرنا عنه الوحي بأنه قد أقسم بالله على الغواية والضلال لبني آدم، لم ينتبه الغافلون المتبعون الذين يدفعهم الشيطان دفعًا نحو الكفر والإلحاد بأنه وإن أقسم ليضل الناس، فقد أقسم بالله مؤمنًا به! فهو يعرف الله حق المعرفة، إلا أنه استكبر، وكان من الكافرين، فاستحق أن يكون زعيم أهل النار يوم القيامة بسبب هذا العناد والاستكبار المغالط للحق، لا تقل: كيف حصل هذا في مملكة الله وسلطانه، أن وجد الشيطان بمشيئة الله وإرادته، ثم الله يحاسب من أغواهم من عباده، لقد اعترفنا بأننا تحت هيمنة الله وأي تساؤل غيبي عن شأن إبليس ووجوده مخلدًا في الدنيا وطريقة ضلاله للناس وكل ما قد يتسلل إلى فكرك سرًّا أو علانية حول ذلك أو غيره، نطقتَ به أم صمتَّ مما يصول، ويجول في نفسك حول عالم الغيب، والملائكة والجن والشياطين، كلها أمور كبرى فوق ضعفك البشري، لا يتطلب وجودها قدرتك على تصورها أو فهمها، فهي موجودة بقدرها الكوني العظيم، فثق بالله، وأحسن الظن به، فإن الله لا يظلم الناس شيئًا، وهو أرحم الراحمين، فلا مزايدة من مخلوق عليه في ذلك أبدًا، ولقد حصر الحساب في منطقة الاختيار الحرة من عمر الإنسان دون سواها، فإذا فقد حرية الاختيار سقط التكليف، وقد بيّنّا ذلك في فصل سابق، فليس أمامنا سوى الاستسلام والتسليم المطلق له سبحانه؛ لأن الأمر كله لله وحده لا شريك له يخلق ما يشاء ويختار، وهو الذي خلق الخلق، ويعلمهم وحده، ونحن عبيده الضعفاء الفقراء الخاضعون له بكل شيء، نرجو رحمته، ونخشى عقابه.

تذكر أن الله لم يكلفك ما لا تطيق، فباعد بين نفسك وبين هذا الرعب والخوف من الضلال الموهوم، واهنأ بجوار الله وأمانه، وتقبل الإيمان الفطري وسهولة الاعتقاد به والراحة معه، ارحل فورًا من دوائر الشك المعقدة، والخوف والضيق وغير ذلك من

الوساوس التي لا سند ولا مبرر لها، وتحول إلى مراتع الطمأنينة بالإيمان والاستسلام والتسليم المنسجم مع وجودك وفطرتك، لستُ هنا أواسيك بمرض، ولا أعزيك بفوات شيء لا يمكن ردّه، بل أذكرك بشيء هو في قلبك ومحور تفكيرك وملازم لك في وجودك كله، وهو أنك والحمد لله تملك أساسًا فطريًّا للإيمان يكفي أن تقيم عليه صروحك الإيمانية الشاهقة مستنيرًا بالوحي دون أن تقلق من عدم تجلية العتمة في الدنيا، وذلك لسببين:

الأول، هو إدراكك الجازم بأنك إنما خلقت لتكون عاجزًا قاصرًا ضعيفًا لم ولن تحيط علمًا بما لا يمكن أن يحيط به الإنسان إلى الأبد، وأنه بمجرد استحضارك لهذه المسلمة، فإنك تبقى مستقرًّا سعيدًا في محيط الإيمان الراسخ بإذن الله، الذي يحتاج فقط إلى عناية ورعاية وحفظ، والحقيقة التي أبشرك بها دون أن تدركها هي أنه كلما زاد خوفك، زاد إيمانك مهما زهدت به، وخفت عليه، فربك أعلم وأحكم وهو الذي خلق وقدر وهدى، ولذا أرشدك إلى تلاوة القرآن للبشرى بالأجر ولديمومة الحصانة والمنعة من الزيغ والضلال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩] ولأن في هذا الأمر تكليفًا خاصًّا، فقد أرشدك إلى الصبر والمصابرة والاحتساب مع الصحبة المباركة، الذين يهيئون لك أجواء الراحة الإيمانية، ونهاك عن صحبة المفرطين التائهين المضللين، انظر كيف خاطب رسوله ﷺ لتعلم أنك أحوج منه إلى ذلك فوق كونه القدوة: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨].

أما السبب الثاني، فهو استحالة أنه كان في الماضي، أو يكون في الحاضر، أو سيكون في المستقبل بمقدور أحد من الخلق أن يجلي لك أجوبة وافية لجميع استفساراتك المتدفقة عن أسرار الوجود والغيب، ويوقفك أمام الحقيقة المطلقة دون الاعتماد على الوحي، بل بما سمح به الوحي من معلومات، تذكر مقولة البروفسور (لويس)[1] التي أوردها

(١) لويس Hywel David Lewis (١٩١٠- ١٩٩٢م) الموافق (١٣٢٨- ١٤١٢هـ) فيلسوف وعالم دين بريطاني من مواليد مقاطعة ويلز ومن أشهر كتبه (Our Experience of God). لاقى انتشارًا واسعًا: (Dictionary Of Welsh Biograpy- Lewis Hywel David).

في كتابه (تجربتنا مع الله) يقول فيها: «إن الحقائق التي يقررها العلم والفكر لا تعدو أن تكون حقائق نسبية، أو حقائق بالإضافة إلى غيرها، وبعض هذه الحقائق مقياس لبعضها الآخر، ولكنها جميعها لا تثبت للذهن بحال من الأحوال بغير القياس إلى حقيقة مطلقة أبدية تحيط بها جميعًا، وهي الحقيقة الإلهية»[1]، هذا ما فاض عن فطرته قبل أن يقرأ القرآن الذي يخبرنا بأن الأمل الوحيد للوصول إلى إجابات شافية على كل ما في نفوسنا سيكون فقط وفقط وفقط في نهاية المطاف وفق أقدار ونواميس مختلفة تمامًا عن حياتنا الدنيا ونواميسها، ونحن على موعد مع حياة أخرى غير تلك التي وجدناها على الأرض، واندمجنا بها، واندمجت بنا، وتطبعنا بها، ولم نتطبع بغيرها، وفي تلك الحياة (يوم القيامة) سنعلم حقيقة كل شيء في موعده، وسيخبرنا عن ذلك من قدر وجودنا، وعلم ساعة موتنا كما علم ولادتنا من قبل، وكلها أمور فوقية بالنسبة إلينا، لم نشهد قدرها ولا تقديرها، إنها الحقيقة الماثلة أمام كل عاقل، التي لا تقبل الجدل أو الإنكار، نحن على موعد مستقبلي مع الله ليخبرنا عما نحن نختلف فيه اليوم، لقد قال لنا: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

بهذا الإيمان الراسخ نشق طريقنا نحو السعادة والسلامة ومن ثم الجنة غير مبالين بما نراه على جوانب الطريق الطويل، نحن في هذا الوجود خلقنا عبيدًا وعبادًا لله، نتفاوت في درجات إيماننا، كما نتفاوت في مقادير أرزاقنا وآجالنا، ولكلٍّ منا نصيبه من الإيمان وله نصيبه من الرزق الذي أبقاه حيًّا، مختلفون ولذلك خلقنا ربنا، لا يتوقع أبدًا أن يجمع الناس على أمر واحد، وهذا الاختلاف والتباين في الأفهام والعقول والتصورات لن ينتهي في حياتنا الدنيا على الإطلاق، ومردّه إلى ميعاد مقدر فيه سنعلم تأويل كل شيء أعجزنا فهمه في الدنيا، أما قبله فلن نعلم! نحن على موعد كريم من رب رحيم، فلننتظر ذلك اليوم الموعود الذي أكده الله بوعده الحق على نفسه ليبيّننّه لنا، ردًّا على قسم الدهريين على إنكار البعث كله، فقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٨- ٣٩].

(١) الفلسفة الإسلامية، عباس محمود العقاد، المجلد التاسع، (مرجع سابق)، ص١٤.

ما أيسر الاعتقاد بهذا الإيمان، تأمله جيدًا، وستجده حلوًا وشفافًا بهذه الصورة الرضائية التسليمية الصادقة والمنسجمة روحيًّا مع النفس والذات والفطرة السليمة، بعيدًا عن الغرور والأوهام التي أضلت كثيرًا من بني البشر عن سواء السبيل، فهذا قدرنا الذي قدره خالقنا، وهو يقدر علينا، ولا نقدر عليه، ومكننا من الاختيار فيما يخصنا وحصر حسابنا فيه، ولم يكلفنا الحساب على ما لا قدرة لنا في اختياره، وستجد نفسك في يوم من الأيام الكونية تواجه هذه الحقيقة الكبرى فائزًا بهذا الإيمان المسبق بها، وحينها ستحمد الله الذي هداك لهذا، وستشكر المخلوق الذي ذكرك في حينه، فاغتنمت فرصتك قبل الموت، ولن يكون لحظة الموت القادمة إليك لا محالة على الرغم من هيبتها مفاجأةً لك من رب قد منحك هذه الفرصة، وقال لمن استهان بها، وفوتها، فحاق به ما كان يظن ويعتقد بعد فوات الأوان: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧] وذلك لأنها فرصة سيقفل بعدها كل ملف دنيوي، وسيكون الحكم العدل (باتًّا) لا معقب له في حق الجميع ومنطوقه صريح نافذ في الحال، وهو: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [الجاثية: ١٥] وليس لأحد أن يعترض أو يحتج أو يخاصم، وقد قدم الله له هذا التحذير مسبقًا يوم أن كان في سعة من أمره قبل أن يرى حاله تلك اللحظة التي قد يخاصم المرء فيها، حيث لن يجد سوى هذا التذكير المسبق بالتحذير من هذا المآل: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٨].

*****

الحب الأعظم ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]

انطلاقًا من هذه المفاهيم العقائدية العميقة تتفجر تلقائيًّا بداخلنا ينابيع الحب الحقيقي لله الرحمن الرحيم، ليس حبًّا عبثيًّا، بل حب أساسه أن الله هو الذي أوجدنا خلقًا وحياة وموتًا، وهيأ لنا كل شيء ندرك به ما حولنا، وأخبرنا عما لا طاقة لنا الإحاطة به، ولم يكلفنا أمره، وقدر لنا، وبيّن لنا طريق السلامة والنجاة بكل سلاسة وأمن ورأفة،

وجعلنا نسير إليه في اتجاه واحد نحوه فرحين مشفقين بكل حب وأمل، يرعانا قبل حياتنا وفي حياتنا وبعد مماتنا وفي آخرتنا، أمرنا كله مرهون بيده ﷻ، لم يجعل من تقصير المقصرين في الطاعة عائقًا عن دخول رحمته الواسعة، بل وعدنا وعد الكريم بأن لا حساب على من لم تبلغه رسالة، وأن رحمته سبقت غضبه مع الجميع بمن فيهم من بلغته الرسالة، وأن الخطيئة تنقلب إلى فضيلة وحسنات عند الرجوع إليه بالتوبة الصادقة.

إن هذا الحب لربنا الكريم هو أعظم الحب وأرقاه وأزكاه وأبقاه، وما أجمل أن تجتمع بالمحبوب صفات القوة والبقاء والرحمة والكرم المطلق والرعاية الأبدية، بل والقدرة على منع كل شر ومنغص، وعندما يكون الحب بين قوي وضعيف، فهو لمصلحة الضعيف بلا شك، قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] ومن هذا الحب تبين لنا ضرورة الإيمان بالله الحق إيمانًا مطلقًا نأمن به من كل قلق، وندفع بهذا اليقين كل وسوسة، نحتاج إلى الطمأنينة التي تقينا كل فزع، وتحمينا من كل نازلة، كيف لا وهو الذي برحمته وسع المستغفر وغير المستغفر، بل إنه كتب على نفسه الرحمة مطلقًا: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] فهذا ربنا الذي أحبنا، وأحببناه، وارتضيناه ربًّا، وآمنا به وحده لا شريك له، فله الحمد والمنة، هو ربنا ومولانا، فنعم المولى ونعم النصير، وإعلان هذا الموقف الكوني إعلانًا مدويًّا أمام كل مخلوق، ومجاهدة النفس للاستقامة عليه بقدر الاستطاعة، هما سبب زوال الخوف والحزن إلى الأبد واستحقاق البشرى عند الموت تحقيقًا لوعد الله القائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

ما أحوجنا إلى أن ننعم بهذا الحب الإلهي ونحن واثقون بأنه لا يمكن لمحبوب محتاج أن يعذب حبيبه أبدًا! فكيف بالمحبوب الغني الحميد، والقوي العزيز، والبر الرحيم سبحانه، فلله منا الحب كل الحب، أصدقه وأدومه، أن خلقنا وعلمنا وهدانا للإيمان، وله الفضل والمنة علينا أن سخر لنا عقولًا نعقل بها وأوجد لنا في الدنيا من الآيات العظيمة ما تبهر عقولنا، وتحير أفهامنا، وتهدينا إليه، وخلق لنا من أدوات الإدراك ما يجعلنا نحس بتلك الآيات العظيمة، فنعظم خالقها، ثم خاطبنا بوحيه الكريم وبكلامه

الحق الميسر لكل الناس مع تفاوت قدراتهم في الفهم والاستنباط، ومن رحمته بهم أنه لم يربط الإيمان بمدى قدرة عقولنا على استيعاب أسرار هذه الآيات، بل أمرنا أمرًا عظيمًا مقدسًا بذاته فوق براهين حجج الدنيا كلها، أمرًا لا يسعنا الا السمع والطاعة له، لقد أمرنا أن نعلم مجرد العلم، سواء قبل البرهان أو بعده، بالبرهان أو من دونه، أن نعلم علمًا كونيًّا مجردًا أنه الله، وأنه لا إله إلا هو، وأمرنا بالاستغفار عما اقترفناه من سوء ظن أو قول أو فعل، قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ [محمد: ١٩] ثم أكد لنا أن الحقيقة الإيمانية قادمة بإذنه، وستسقر بعد هذا العلم، وسيخبت القلب الباحث عن الحق بصدق، ويخضع لله بسببها، وستنقاد تبعًا لذلك كل الأعضاء والجوارح وحتى العقل بمجرد هذا العلم، لقد وعدنا بذلك القادر على كل شيء فضلًا منه وتكرمًا، وعدنا بهذه الهداية إلى الصراط المستقيم ومن أصدق منه وعدًا؟!، بأن الإيمان المطلوب سيتحقق من خلال هذه المراحل: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

*****

حب الرسول ﷺ

من محبة الله العظمى يتفرع محبة أخرى لتشمل حب كل شيء من عنده، وفي مقدمة ذلك حب المصطفى الحبيب نبينا محمد ﷺ، الرؤوف الرحيم بالمؤمنين الذي نجد في سنته وسيرته وتوجيهه الملاذ من كل وحشة فكر ووسوسة شيطان، إنه سيد ولد آدم الذي تولى الله تعالى تقديمه لخلقه بنفسه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] ما سأله سائل إلا وأعطاه مسألته، أرأيت كيف كان رحيمًا مشفقًا على أصحابه الذين أفصحوا له عما كانوا متخوفين مترددين من قوله إلا له، كتخوف بعضنا اليوم من أن يبوح بما يشابهه، فلم يزجرهم أو يجرمهم أو ينهاهم ابتداءً، بل استفهم منهم استفهام

المشفق المبسط للأمر، نازعًا فتيل الوحشة من قلوبهم المتعطشة للحق أولًا بقوله: «**أوَجدتموه؟**»، سألهم، وكأنه ينتظر ذلك منهم منذ زمن، كأنه يريد رؤية ثمرة مشروعه الإيماني العظيم في أصحابه، وإلا لما قال لهم: «**الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة**»، مؤكدًا أن (ذلك محض الإيمان)، تخيل لو أن كل من لديه إشكالية مشابهة لتلك التي كانت عند بعض الصحابة، وجد من شيخه أو موجهه أو من مجتمعه هذا اللطف والشفقة والأمان والتوجيه الحاني البشوش، حتى يأخذ بيده إلى الأمان واليقين، ورب السماء والأرض لن يبقى إنسان واحد في وحشة تحتقن في قلبه تلك المعارك الفكرية الطاحنة التي يواجهها منفردًا، وهذا علاجها الميسر من الله ورسوله أقرب إليه من حبل الوريد، ولكنه قد تحمل هذا الجفاء ممن حوله، وأجره على الله تعالى.

لقد كان الحبيب ﷺ مبلغًا أمينًا أقام كيان الأمة على أساس من التقوى، فاستقام هذا الكيان، وصمد لأنه رسالة الله إلى خلقه، فبلغها عن الله للناس دون أن يطمح إلى ملك أو جاه، إنه مشروع يختلف تمامًا عما كانت تهدف إليه أمم سادت، ثم بادت، كحضارات فارس والروم وقصور كسرى وقيصر وبابل والغساسنة والمناذرة (الخورنق والسدير)[1]، الذين سادوا قبل النبوة، ثم بادوا واندثروا، بينما بقيت رسالة المصطفى عليه الصلاة السلام متجذرة في العقول والأفهام على الرغم من تواضع حياته المادية التي عكسها تواضع حجراته التي أبقاها الله في مسجده للعبرة، كما نراها اليوم، تلك الحجرات التي لا تكاد تشكل في مساحتها الصغيرة زاوية في أصغر بيت من أدنى بيوتنا المعاصرة، وما له وما لدنيا بأبي هو وأمي، لقد كان جل همه التبليغ وهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومن رحمته بالناس أن شق عليه ألا يراهم مؤمنين بالوحي الذي جاء به، حتى جاءه القرآن مخففًا عنه همه ذلك بهذه المواساة الخاصة: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨] وسبب ذلك أن ضلال أولئك القوم كان جحودًا متعمدًا للحق: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] وهذه ليست مسؤوليته:

(١) قصر الخورنق من قصور العرب في الجاهلية بناه المهندس الرومي سنمار بأمر من النعمان بن المنذر جنوب العراق في القرن الرابع الميلادي وقصر السدير أقل منه حجمًا وقد بناه اللخميون المناذرة في نفس الفترة تقريبًا.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] فمسؤوليته هي البلاغ بكل وسائله: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨] حتى يصل البلاغ إلى منتهاه بالجهاد، وكما أنه مبلغ فهو أيضًا منذر: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ بأنه: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥] ولكن رحمته بأمته أوجدت لديه هذا الشعور بالحزن على ضلال قومه، لولا أن تداركته رحمة الله، وهو يتحسر على أمته طمعًا في إنقاذهم من الضلال.

أفلا نحب من كانت هذه صفاته وهذا خلقه؟ لقد استحق بهذا الخلق العظيم وتأديته للأمانة أن يكون هو الأسوة الحسنة الواجب الاقتداء به من قبل كل إنسان، في كل شيء، في أقوالنا وأفعالنا وأساليب دعوتنا، وأمرنا بالمعروف وإنكارنا للمنكر، وعلى كل عالم وداعية أن يقتدي به متجردًا في تعامله وتلطفه مع من يحتاجون إلى بيان الحق من الناس، فيبلغ عن الله ورسوله دون أن يجلب لذاته شيئًا من حق الله له، ويمضي على الطريق المستقيم مناديًا بالحق لله وحده، مرشدًا الناس إلى طريقه، متحملًا العقبات بل والعثرات بكل صبر واحتساب، فلا يزجر سائلًا قط، ولا يغلق باب استفسار مهما كان حساسًا دون أن يحيله إلى جواب واضح كوضوح الشمس في رابعة النهار، فالنبي ﷺ لم يكن ينطق عن الهوى، وهو يوجه السائل للتفكر في مخلوقات الله، وينهاه عن أن يفكر في ذات الله فيهلك، لماذا يهلك؟ لأنه لا مجال لمؤمن ولا كافر منذ آدم في الماضي وحتى نهاية المطاف في هذه الدنيا، أن يكون في مقدوره معرفة أي شيء عن ذات الله على الإطلاق مهما فتح الله على الإنسان من علم في الدنيا، حقيقة محسومة بشكل نهائي إلى الأبد، قضي الأمر وانتهى، إنه التحدي المطلق الذي لم يجد المكابرون في مواجهته سوى اللجوء إلى الإنكار والنفي والإلحاد مكابرين، ولكن هيهات ثم هيهات موعدهم لحظة الندم عند الممات!

*****